

مقدمته

بقلمهم الاستاذ الدكتور طه حسين

في مصر الآن نهضة قيمة لم تتناول حركة العقل وحده أو الشعور السياسي وحده، وإنما تناولت كل شيء وامتد ظلها على جميع فروع حياتنا الخاصة والعامة في كل ما تناولته الحياة من مرافق الأفراد والجماعات . ليست هذه النهضة حديثة وليس الشعور بها طريفاً، فربما كان أقدم ما نعرفه من أمرها وصول الفرنسيين إلى مصر في أواخر القرن الثامن عشر وما كان لهم من الأثر في إيقاظ المصريين وتنبيههم إلى أن للحياة مثلاً علياً غير ما ألفوه، وإلى أن هناك واجبات اجتماعية لا ينبغي لأمة حية أن تجهلها أو أن تقصر فيها

أيقظ الفرنسيون مصر ونهوها فاستيقظت وتنهت ومضت في سبيلها إلى الرقي متعثرة متباطئة ولكنها ثابتة القدم مزمنة الرأي على ألا ترجع أدراجها أو تقف من هذا الرقي عند حد . مضت في سبيلها إلى الرقي وأخذت تغالب في هذا السبيل خطوباً ثقالاً منها الداخلي ومنها الخارجي وقد قدر الله لها أن تغلب هذه الخطوب وقد قدر الله لها أن تفوز

ولقد نعلم أن الأمد لا يزال بعيداً وبعيد جداً بيننا وبين ما نرجو من الحياة الصالحة في كل شيء، ولكننا نعلم أيضاً أن الأمد بعيد وبعيد جداً بين ما نحن فيه الآن وما كنا عليه منذ قرن مضى . نعلم ذلك فنغتنب بما بلغنا، وتقوى عزاً ثمناً على أن نجهد في سبيل آمالنا لا واهنين ولا متواكلين

ولقد نعلم أن ليس لما تسلكه الأمم إلى الكمال من سبيل غاية ولا حد ، فهي كلما وصلت من الرقي إلى طور استيقنت بأن دون هذا الرقي رقيا آخر يجب الفوز به والوصول إليه . حياتها كلها مضي سريع أو بطيء في طلب هذه الغاية المنشودة التي لا تقاربها إلا بعدت ولا ندانيها إلا نأت . نسعى ولكنها تسعى أمامنا كأن قدر علينا ألا ندركها . ولكن الفوز الحقيقي هو في هذا السعي الذي لا أمد له ولا حد ينتهي إليه

لن يظفر بالكمال أحد وإن يكون للرقي العامي أو الاجتماعي حد . إنما حياة الأمم حركة دائمة إلى الأمام ، وإنما الفوز كل الفوز والرقي الذي ينبغي أن يطمع فيه الإنسان هو أن تكون هذه الحركة متصلة ، وألا يعترضها من العقبات الداخلية أو الخارجية ما يقفها أو يجعل مضيتها بطيئا ، وليس من شك في أن مصر قد أخذت بنصيبها من هذا الفوز فشعرت وأحست وانبعثت فيها الحياة فضت إلى ما تريد

هذا شيء لا شك فيه ولا حاجة إلى إثباته لأن ما نشهد وما نسمع مما يجري ويقال في مصر متظاهر على إثبات أنه حق

أرأيت إلى هذه الصحف السيارة لا تذكر إلا الاستقلال وتحقيق الآمال ، أرأيت إلى الناس في مجالسهم لا يتحدثون إلا بالجديد ولا يرغبون إلا في الجديد ، أرأيت إلى هذه الكتب تترجم وتؤلف ، وإلى هذه الفصول المختلفة تكتب وتنشر ، وإلى هذه المحاضرات تلقى ويتجاذب الناس فيها ألوان الحديث ، أرأيت إلى هذا كله ، إنه دليل على الحياة القوية وباعت في الوقت نفسه على هذه الحياة . دليل على الحياة لأنه حركة ، فلمنغبط به ولنستزد

منه ففيه الخير كل الخير

لا ينبغي أن يزهنا فيه أو يرغبنا عنه ما نشهد من ضعف أو قصور،
فكل ضعف إلى قوة، وكل انحطاط إلى رقي إذا كانت هناك الحياة الداخلية
التي تمد الضعيف فتقويه وتنبعث في المنحط فتربيته

ولعل أقوى ما يميز هذا العصر عصر النهضة الذي نعيش فيه ميل
الشباب والشيوخ إلى ذكر الماضي وما كان لا بائنا فيه من بلاء حسن وأثر
بعيد، فإن الأمة الحية حقاً لا تحيا بحرصها على الحاضر وتهالكها عليه، وإنما
ترغب في تغييره وأن تستبدل به خيراً منه، وليس سبيلها في ذلك أن تكلف
بالجديد وحده كلّفها لا حذله، وإنما سبيلها المعقولة أن تكلف بهذا الجديد
وأن تستمد من القديم قوتها على تحصيله والفوز بالصالح منه

كذلك نهض أهل الغرب فهم حين سئموا حاضرهم إبان النهضة لم
يندفعوا بالجديد إلا معترزين بالقديم، ولولا أن أتيحت لهم آثار اليونان
والرومان وما كان لهم من مثل عليا في السياسة والأدب وفي الفلسفة والعلم
لما قدر لهم أن يقطعوا من الرقي هذا الشأو البعيد

كذلك نهضت أوروبا وكذلك نهض مصر؛ ذكرت قديمها فنشرته،
ونذكر قديمنا فنحييه، ولقد نتحل لذلك العلل والمعاذير وتكلف له الحجب
والأسباب، والحقيقة واضحة جلية وهي أن هناك علة واحدة هي أن الأمة
ناهضة نشعر بشخصيتنا ونسعى شاعرين أو غير شاعرين إلى أن نظهر كل
ما من شأنه أن يقوى هذه الشخصية في أنفسنا ويحمل الناس على أن يعترفوا
بها، ومن هنا لا أصدق ما انتحلّه صديقي الدكتور بيلى في مقدمة كتابه هذا

من الأسباب التي حملته على أن يختار صلاح الدين موضوعا للبحث ، وإنما أعتقد أنه اندفع بحكم هذه النهضة المصرية العامة إلى أن يُظهر وجهها ناصعا مجيدا من وجوه الشخصية المصرية ، فاختار من عصور مصر الخالدة عصرا قدر الله له فيه أن تحمي الحضارة وتذود عن الأسلام ، وقد بما قدر الله لمصر أن تحمي حضارة اليونان وتذود عن فلسفتهم وتحدث من هذه الحضارة اليونانية ممتزجة بالحضارة المصرية القديمة هذا المزاج الفلسفي البديع الذي تمثله الفلاسفة الإسكندرية والديانة المسيحية أحسن تمثيل

أظهر الدكتور بيلي في هذا الكتاب وجهها من وجوه الشخصية المصرية التي حمت الحضارة مرات ، فعصمت حضارة اليونان وفلسفتهم من الضياع ، وصدت غارات الصليب عن الشرق وأهله ، فاستبقت للحضارة الإسلامية حياتها وقوتها ، ثم زادت التتار عن هذا العالم الأسلامي أيضا ، وكانت آخر معقل آوت إليه آثار المسامين العقلية والأدبية فظلت فيه آمنة حتى أتبع لها هذا العصر الذي نحن فيه والذي أخذ يبعث فيها القوة والحياة

ولقد أرى صديقي يتمنى أن يكون قد وُفق في بحثه إلى شيء من النفع ولو قليل ، وأعلى أستطيع أن أهنيئه بأنه قد وُفق إلى شيء من النفع كثير وكثير جدا

مارس سنة ١٩٢٢